

الجريدة المتلفزة : رهانات التغيير.

د. نصر الدين لعياضي، كلية الاتصال، جامعة الشارقة

مجلة اتحاد الإذاعات العربية، تونس: عدد 4 - 2009

تختلف المسميات بين دول المشرق والمغرب العربيين. فالأولي تطلق عليها مسمى نشرة الأخبار التلفزيونية أو المصورة، و دول المغرب العربي تسميها الجريدة المتلفزة أو المصورة. لكن مهما اختلفت المسميات فإن الكثير من القسمات المشتركة تجمع الجرائد المتلفزة في التلفزيونات العربية بصرف النظر عن موطن بثها. هذه القسمات لا تستطيع أن تخفي بعض الاختلافات بينها، والتي تحاول أن تضخمها هذه القناة التلفزيونية العربية أو تلك.

إن محاولة تقييم القنوات التلفزيونية أو نفيها بالنظر إليها من الكوة السياسية يعد جهدا غير منتج، لأنه يؤكد ما هو معروف لدى العام والخاص عن العلاقة التي تربط السلطات العمومية بالقنوات التلفزيونية، مثل الموقف السياسي لهذه القناة التلفزيونية أو تلك من هذا الحدث أو تلك القضية. وهكذا يُغفل ما هو أساسي في العمل التلفزيوني أي ما يجعل التلفزيون تلفزيونا، وما يجعل الجريدة المتلفزة جريدة، ويفرض التعامل مع هذه الأخيرة كظاهرة أو حدث سياسي لا غير.

إن المقاربة السياسية للجرائد المتلفزة في القنوات التلفزيونية العربية، التي قد تفلح في الكشف عن ثبات أو تطور موقف هذه القناة التلفزيونية أو العربية من القضايا الراهنة العربية أو الدولية، لكنها تفشل في تحديد الإشكاليات التي تواجه القنوات التلفزيونية العربية. نقول الإشكاليات وليس التحديات لأن العديد من اللقاءات التي كان محورها التلفزيون والإعلام التلفزيوني كررت الحديث عن التحديات ذاتها، ولم تقترب إلا ما ندر من الإشكاليات التي توّطر هذه التحديات. ويمكن ان نذكر من قائمة هذه التحديات على سبيل التعيين وليس الحصر: كيف يخاطب الإعلام التلفزيوني العربي الآخر؟ وكيف يعبر الإعلام التلفزيوني عن السياسات العامة للدول العربية؟ وكيف نرفع درجة تأثير الإعلام التلفزيوني في أوساط الجمهور؟ وكيف نواجه التحدي التكنولوجي في مجال الإعلام التلفزيوني أو كيف نحمي الفضاء التلفزيوني العربي من التطرف واستعراض الجسد وتنفيه عقل المشاهد؟ وغيرها من التحديات التي تملك، بدون شك، أهمية بالغة، غير أن توجيه النقاش نحو فصل التحديات عن

الإشكاليات افرز مجموعة من التطبيقات المهمة بدون شك، لكنها غير كافية، مثل إنشاء قنوات تلفزيونية تبث باللغة الأجنبية لمخاطبة الأخر، وتجديد الترسانة التكنولوجية لنقل الأخبار، واستثمار الجهد والمال في المظهر الشكلي للجرائد التلفزيونية وإخراجها.

إشكاليات

يمكن القول من باب التبسيط أن القنوات التلفزيونية في الدول المتقدمة تواجه ثلاث إشكاليات ذات طبيعة أنطولوجية، وتطرح في إطار عام يتعلق بهوية التلفزيون ووظائفه، وهي:

1- أمام تكاثر القنوات التلفزيونية المتخصصة التي عملت وتعمل على تفتيت الجمهور، هل أن وظائف القنوات التلفزيونية الجامعة التي تروم جمع جمهور عام وغير متجانس تظل ذاتها؟ وهل أن جرائدها التلفزيونية ستكون قادرة على الحفاظ على جمهورها في ظل البروز الاستعراضي للقنوات التلفزيونية المتخصصة في الأخبار؟

2- هل أن الحاجة إلى الجرائد المصورة في الظرف الحالي، وفي المستقبل القريب تظل ذاتها، وتبقى على ما كانت عليه قبل عقدين من الزمن، في ظل استثناء شبكات الإعلام الجديد: الفيس بوك Face book ، وتوتر Twiter ، والمدونات الإلكترونية Blogs، و اليوتيوب Youtube ، والهاتف الذكي، والمواقع الإخبارية على شبكة الانترنت التي تجدد مضامينها باستمرار دافعة بآنية الأخبار إلى أقصى دراجة من الراهنية؟ فمن المحتمل أن يلجأ الجمهور إلى هذه الشبكات والمواقع للإطلاع على الأحداث المستجدة دون انتظار مواعيد بث الجرائد التلفزيونية، وعلى هذه الأساس يخشى البعض أن يتحول تجمع أفراد الأسرة لمشاهدة الجريدة المتلفزة مجرد فكرة غائرة في الذاكرة. لعل هذه الخشية ساهمت في تشجيع العديد من القنوات التلفزيونية على فتح موقع لها على شبكة الانترنت وتغذيه بما يستجد من أحداث، وبث مقاطع من شرائط الفيديو الإخبارية والمقابلات التلفزيونية على يوتيوب

3- هل يوجد مستقبل للقنوات التلفزيونية التابعة للقطاع العام في ظل إستثناء القنوات الخاصة أو بالأحرى التجارية، التي أصبحت تشكل مرجعا للريادة التلفزيونية؟ إذا كانت الإجابة بنعم، هل تستمر هذه القنوات في بث ما دأبت على بثه وبالشكل ذاته أم أنها تعيد النظر في وظائفها؟ فإذا استمرت في الوجود فما هي نقاط التلاقي والاختلاف بين جرائدها

التلفزيونية وتلك التي تبثها القنوات التلفزيونية الخاصة، على مستوى سجل المواضيع، و ترتيب الأخبار، وقوالها التعبيرية، وأشكال إخراجها، ونظرتها للجمهور؟

يمكن القول أن الجريدة المتلفزة تقع في قلب الإشكاليات التي تواجه القنوات التلفزيونية الجامعة. وذلك لأنها تعد واجهتها، والركيزة الأساسية التي تستند إليها شبكة برامجها التلفزيونية. فموعد بثها المسائي يشكل ذروة المشاهدة Prime time، والذي على أساسه تبنى خطابها التلفزيوني وتقسم المشاهدة التلفزيونية إلى ما قبله وما بعده.¹

لم تولد الجريدة المتلفزة في صورتها النهائية والمكتملة، بل تشكلت تدريجياً لتكسب ملامحها الحالية. والنقاش الدائر حول إشكاليات تطورها في الفضاءات المهنية والأكاديمية يساهم، بدون شك، في التساؤل عن استخدامها الاجتماعي بما يسمح بإعادة تموقعها في فضاء الاتصال والإعلام في ظل التقدم التكنولوجي، وفي خضم تطور المستوى الثقافي والمعرفي للجمهور، وبالنظر إلى تغير موقعه في المعادلة الإعلامية.

استطاع التلفزيون أن يتحول إلى مؤسسة بعد 61 سنة من الوجود والتطور، وتجلت ملامح هذه المؤسسة في تثبيت عدد طبعاتها اليومية، وتحديد قالبها، وضبط مواعيد بثها ومدتها الزمنية، وتعيين خطها التحريري، وترسيخ معاييرها المهنية.

يمكن أن نستوعب التغييرات التي حدثت في بنية الجريدة المتلفزة انطلاقاً من المستويات المتفاعلة التالية²: المستوى السيميائي أو الدلالي (المحتوى الظاهر والضمني، أي ما تقوله الجريدة المصورة جهراً أو ضمناً)، والمستوى التركيبي (سجل المواضيع وأسلوب المعالجة)، ومستوى العرض (النطق، والترنيم، وتدفق الكلام)، وعلى المستوى المرئي (الإخراج وتحويل الأخبار إلى صور).

إن الجريدة المتلفزة ليست منتجا قائما بذاته ولذاته. إنها جزء لا يتجزأ من القناة التلفزيونية، تعكس تطوراتها وتساهم في حدوثها. لقد عايشنا انتقال التلفزيون من حالة التلفزيون التعليمي/الدعائي إلى التلفزيوني الاتصالي/الترفيهي وساهمت فيه بفاعلية.

لم تكن الجريدة المتلفزة عند أول انطلاقتها تبث يومياً، بل ظلت مدة تبث ثلاث مرات في الأسبوع، ولمدة 15 دقيقة فقط. وكانت جداً بسيطة: صوت من خارج الشاشة يعلق على الصور المتوالية الظهور أمام المشاهد. فكانت أقرب إلى صور الأحداث المصورة التي تبث في قاعات السينما قبل عرض الأفلام. ولم يظهر مذيع الجريدة المصورة للنظرة إلا بعد خمس سنوات من تاريخ ميلاد الجريدة المتلفزة. وبدأ الوقت المخصص له بالنقص، تدريجياً،

منذ الثمانينات من القرن الماضي لصالح الريبورتاج المصور، وتدخل المراسلين والموفدين من داخل البلد وخارجه، و الضيوف الحاضرين في الأستديو أو عبر الأقمار الصناعية.

يمكن أن نشخص العوامل الأساسية التي ساهمت في تطور الجريدة المتلفزة فيما يلي:

1- العامل السياسي. لقد كان تطور الجريدة التلفزيونية، خاصة في بدايتها، رهينة العامل

السياسي. فالدول تنظم قنواتها التلفزيونية وفق تنظيمها القانوني والإداري والسياسي. فما هو الداعي لقيام الدول، وليس المؤسسات الخاصة، بإطلاق قنوات تلفزيونية باللغة العربية موجهة للشعوب العربية إن لم يكن سياسيا وإيديولوجيا حتى وأن اتخذت مسميات مختلفة: الدبلوماسية العمومية، أو التقارب الثقافي؟

رغم تطور العلاقات بين السلطات العمومية والقنوات التلفزيونية العامة والخاصة نحو المزيد من استقلالية هذه الأخيرة، في العقود الأخيرة، وتجدد التشريعات القانونية التي تنظمها إلا أن مواقف الدولة الفرنسية، على سبيل المثال، تطل عبر التغطية التي يقوم بها التلفزيون الفرنسي للأحداث الوطنية والدولية. وكذلك الأمر بالنسبة لقناة سي أن أن، وحتى قناة فوكس نيوز الأمريكية التي تكشف، بهذا القدر أو ذاك، عن مواقف البيت الأبيض الأمريكي تجاه القضايا الدولية. إن معنى هذا القول أن التلفزيون يتأثر بهذا الحد أو ذاك بالرؤية الرسمية للأحداث والتي تترك بصماتها في طريقة انتقاء الأحداث وفي أشكال التعبير عنها. فالجريدة المصورة في تعريفها البسيط هي طريقة في اختيار الأحداث وإخضاعها لتراتبية معينة، و تمثل للأحداث والمؤسسات والأفعال. وشكل من الخطاب الذي تقوده قصيدة معينة، وشكل من توزيع الكلمة على القوى الاجتماعية الصانعة للحدث أو المؤيدة له لاستفادتها منه ماديا أو رمزيا أو المتضررة منه أو المعارضة له. فهي وسيط بين الجمهور وما يجري من أحداث لكنه وسيط نشيط يعيد تشكيل هذه الأحداث من ترسبات ثقافية وتمثل سياسي للأحداث.

2- العامل التقني: على الرغم من أن التكنولوجيا لا توجد في حالتها المجردة والمنفصلة

عن الممارسة الاجتماعية إلا أنه يمكن القول أن تطور الجريدة المتلفزة ارتكزت، بقدر كبير، على المبتكرات التكنولوجية، بدءا من عُدّة التصوير وصولا إلى تقنيات البث المباشر. إن الانتقال من التصوير السينمائي إلى الفيديو جعل الجريدة المتلفزة تكسب الكثير على صعيد الوقت، والجودة، وكمية الأخبار المنقولة. كما أن دخول جهاز القراءة عن بعد teleprompter، وساعة الأذن قد أثرت تأثيرا واضحا في تقديم الجريدة التلفزيونية، وفي تراتبية الأخبار بما يتناغم مع تطورات الأحداث. لكن التأثير الأكثر وضوحا على الجريدة المتلفزة يتمثل في البث المباشر الذي دفع بالآنية إلى أقصى درجة حيث أعاد هيكله دورها،

وغير فيما ينتظره المشاهدون منها. فقبل البث المباشر كانت الجريدة المتلفزة تحكي عما جرى، وغدت بعد البث المباشر تظهر ما يجري. لقد ساهمت هذه التقنية في دفع الصورة التلفزيونية لتغير موقعها في اللغة السمعية- البصرية، وتنتقل من كونها وثيقة إثبات وحجة على واقعية الأخبار ومصداقيتها إلى مادة حية لإظهار الحدث وإبرازه. إن النقل الحي والمباشر للأحداث قد أنتج الإحساس لدى المشاهدين بالمشاركة في الحدث وهو يجري أمام نظرهم. وهكذا انزاحت الجريدة المصورة عن توضيح ما جرى وشرحه، وانصرفت إلى الإيحاء بالمشاركة فيه والاستمتاع به. وهكذا ساهمت المبتكرات التكنولوجية المتتالية في جعل الجريدة التلفزيونية تكسب على مستوى القرب. وكسب معها الجمهور كثيرا على صعيد العاطفة لكنه خسر كثيرا على مستوى الفكر والفهم، على حد تعبير الباحث دانيال بونيو.

إن انتقال البث التلفزيوني من التناظري إلى الرقمي لم يدفع الجرائد المتلفزة للاستفادة من جودة الصورة ونقاء الصوت فحسب، بل منحها إمكانيات إضافية لتشخيص الأحداث والتعبير عنها من خلال عمليات التشخيص بواسطة الغرافيك Graphic Design، وإعادة مسرحة الأحداث أو تشكيلها، مع كل ما تحمله هذه الاستفادة من مزلق، وما تتيحه من إمكانيات التلاعب والتضليل بالحقائق والوقائع. وسمحت هذه التكنولوجية للجريدة المتلفزة بالمساهمة في تجسيد مقولة "الإعلام الجماهيري الفردي"، حيث منحت للمشاهد فرصة التخزين الشخصي السهل، ومرونة التحميل عبر أبنية تكنولوجية مختلفة، والتمتع بحرية التصرف في وقت مشاهدتها.

إن التكنولوجيا الرقمية بمختلف تطبيقاتها ستغير من خارطة القنوات التلفزيونية؛ إذ أنها سترفع عدد القنوات التلفزيونية، بشكل كبير، وتفتح أبواب المنافسة على المستوى الأفقي: إنشاء المزيد من القنوات ذات الطابع المحلي أو قنوات محلية، وعلى صعيد عمودي، رفع عدد القنوات الجامعة و المتخصصة، ما يدفع الجرائد التلفزيونية إلى إعادة انتشارها في الفضاء التلفزيوني وإعادة النظر في مضمونها. لقد عززت التكنولوجيا الرقمية القنوات التلفزيونية المحلية في العديد من الدول الأوروبية، ومكنت جرائدها المتلفزة من استثمار القرب والجوار الذي أصبح مبنغى في عالم معولم. فركزت على تفاصيل حياة الجمهور المحلي وانشغالاته. وبهذا أصبحت تهدد الجرائد التلفزيونية المركزية والوطنية بتفتيت جمهورها.

3- العامل الإقتصادي: إن اعتماد القنوات التلفزيونية المترديد على الإعلانات في تمويل القنوات التلفزيونية غدى المنافسة بينها، و سلع الأخبار؛ مما أدى إلى إعادة النظر في

مواضيع الجريدة المتلفزة، وفي مضمونها وشكلها. وساهمت وسائل قياس المشاهدة Audiometer في تغيير المعادلة الإعلامية في التلفزيون. فابعدتها عن هاجس التغطية الأكمل والمتروية لأهم الأحداث، ودفعتها للانشغال بالوصول إلى أكبر عدد ممكن من الجمهور. ولبوغ ذلك لابد من إرضائهم بشتى السبل، منها:

■ تقليص المواضيع المتعلقة بالأحداث الدولية والاقتصادية في الجريدة المصورة لصالح القضايا الجوارية والقريبة من الانشغالات المحلية³ حتى تلتصق، أكثر، بالأوضاع التي يعيشها الجمهور.

إن ما يُرعب مسؤولي الجريدة المتلفزة هو تقديم مادة إخبارية تبعث على الملل، فيلجأ المشاهد إلى استعمال سلاحه الفتاك " جهاز التحكم عن بعد " remote control لمشاهدة قناة تلفزيونية منافسة. لهذا الغرض شهد نصف القرن الماضي تزايد إيقاع الجريدة المتلفزة سرعة. فالريپورتاج الذي كان يأخذ ستة دقائق من زمن الجريدة المصورة، أصبح يستغرق 36 ثانية فقط⁴. و الاختصار في مدة بث الأخبار التلفزيونية لم يحدث ديناميكية في الجريدة التلفزيونية التي تغري بالمشاهدة فقط، بل زاد في عدد الأحداث التي تعرضها في الموعد الإخباري الواحد. يمكن أن نشير، على سبيل المثال، إلى أن الجريدة المتلفزة المعاصرة تنطرت إلى 24 حدث خلال 37 دقيقة فقط!

■ الضغط على مدة الخبر واختصاره زمنياً، ورفع إيقاع الجريدة المتلفزة نتيجة لما يعيشه العصر الحالي من سرعة، وللتغيير في الحياة الاجتماعية التي نظمتها تكنولوجية الاتصال الحديثة وفق إيقاعها الخاص، مما حدا بالجريدة المتلفزة إلى سلب المشاهد حقه في فهم ما جرى، فتقدم له شذرات من الأحداث التي تتوالى أمام نظره بدون رابط مكاني أو موضوعي. لقد تماهت الجرائد المتلفزة مع فعل المشاهدة بالموثبة Zapping. فغدت تقدم أحداثاً خاطفة، متدفقة بسرعة، تتقاطع فيها الصور والألوان والحركة. و يمتزج فيها الدرامي بالسخري والاستكشافي. لقد تحولت إلى شذرات من الأحداث والواقع المعجونة بفسيفساء الألوان والصور والحركة والصوت.

■ تغيير قواعد الإنتاج: دفع ضغط الإعلان الجريدة المتلفزة لتقترب أكثر من المادة الدرامية، فأخضعها لقواعد إنتاجه وإخراجه. فإذا كان هناك نوعاً من الاستمرارية والنبات في الديكور، فإن سيناريو الأخبار يتغير باستمرار حسب طبيعة الأحداث، لكنه يحافظ، دائماً، على مبدأ الاستعراض الذي يمتزج فيه الترقب والعاطفة⁵. كما أن استبدال قياس المشاهدة التلفزيونية جعل الجريدة المتلفزة تُحاسب وتُقيّم مثل أي مادة درامية؛ أي على أساس عدد

مشاهديها. فحتى تكسب أكبر عدد من المشاهدين يجب أن تتخلى عن اللهجة الصارمة والتعليمية، وتجنح نحو التلقائية التي تشبه تلقائية الحديث اليومي في الحياة، وتستخدم النكت والالتفاتات المازحة، وتوظف الصورة المتحركة لخطف البصر وإغرائه ، وبناء السرد التلفزيوني بالاستناد إلى الوحدة الدرامية التي تتسج من الصراع بين الأختيار والأشرار، والأحداث المأسوية والغريبة، وغيرها. إن تطور أشكال بناء الأحداث التلفزيونية يَنسِي الجمهور أنه يشاهد تصورا مجسدا للأحداث، وأنه يتعاطى مع تمثّل للواقع وليس مع الواقع العيني.

تداخل

هكذا تداخل الشكل والمحتوى في الجريدة المتلفزة. فكفت عن القيام بدور إخباري، بمعنى مساعدة الجمهور على فهم العالم، بل تحولت إلى ضرب من الطقوس المسائية في الثقافة الغربية، تقترح موعدا للترفيه الذي يذكر المشاهدين، وهم في غمرة استمتاعهم، بما يجب أن يعرفونه من أحداث⁶.

يؤكد السياسيون في الدول المتقدمة على أن الجرائد المتلفزة تملك القدرة على لمّ شمل المشاهدين، أي أنها تقوم بدور فيدرالي. ويؤكد علماء الاجتماع بأن هذه الجريدة تشكل حيزا للتنشئة الاجتماعية، يملك أهميته في ظل تراجع أدوات الاندماج الاجتماعي في هذه الدول، مثل المدرسة والعمل، والأنشطة الثقافية إما لتسليعها أو لسقوطها فريسة العقل الإجرائي أو الأداتي حسب ما ذهب إليه الفيلسوف الألماني يورغن هبرماس أو لما تمارسه من إقصاء رمزي لقطاع واسع من الجمهور. لكن خطورة هذا النوع من التنشئة تكمن في تشكّلها من رموز مأكرة أو مخادعة، وذلك لأن معايير تقييم الحوادث والظواهر والأشخاص قد تغيرت. فالمذيع الذي يقدم الجريدة المتلفزة أصبح يُقيم بناءً على مظهره ووسامته وعلى ذوقه في تنسيق ألوان هندامه، وليس إنطلاقا من مقدرته في الاتصال وبراعته في التقديم والشرح، ومهارته في عرض الأحداث، ودقته وحصافته. والأحداث التي تعرضها الجريدة المصورة أصبحت تمر عبر النظرة للمذيع أو مقدم الأخبار.

■ تغيير موقع الصورة في جملة الأخبار التلفزيونية: لقد انتقلت الصورة من وثيقة إثبات عن صدق الأحداث، إلى الحدث ذاته. فأصبح الحكم على صدق الأحداث المنقولة تلفزيونيا، وعلى موضوعيتها يقاس بمدى القوة التعبيرية الكامنة في الصورة وجماليتها. هكذا انقلبت الأمور، ففي الماضي كان الصورة المتلفزة تحيل إلى الواقع العيني، وهو المرجع للحكم على

مضمون الصورة لكن مجمل العوامل المذكورة أعلاه جعلت الواقع يحتكم إلى الصورة! لقد استشرت هذه الحقيقة في مختلف مناخي الحياة: المودة، السياسة، الإعلان... .

لولا تطور المجتمعات المتقدمة ما كان للعوامل المذكورة أعلاه التأثير المذكور على مستوى مبنى الجريدة المتفزة ومعناها. فهذه الأخيرة ليست جزيرة منفصلة عن الحياة الاجتماعية. حيث يمكن أن نقرأ تطور المجتمعات من خلال جرائدها المصورة ليس على مستوى التيمات/ الموضوعات المتداولة فقط، بل، أيضا، على مستوى لغتها، وطريقة تقديمها للأحداث وشكل إخراجها.

ثقل الماضي

هل كان للعوامل المذكورة أعلاه التأثير ذاته على الجريدة المتفزة في القنوات التلفزيونية العربية؟

مما لا شك فيه أن المشهد التلفزيوني العربي قد تغير عما كان عليه قبل عقدين من الزمن. هذا ما يتجلى على مستوى التزايد الكمي للقنوات التلفزيونية التي تبث من المنطقة العربية أو إليها. فتعددت القنوات التلفزيونية، وتزايد " استثمار " القطاع الخاص فيها، وبروز القنوات التلفزيونية المتخصصة أحدثا ديناميكية جديدة في المنطقة على مستوى الأخبار المتفزة، وفي مجال منح شرعية للترفيه والتسلية. وقد لعب الإعلان دورا كبيرا في تمويل القنوات التلفزيونية العربية وفي إحداث هذه الحركية. وقد امتد هذا التطور إلى الجرائد التلفزيونية. وإذا كانت هناك ضرورة لتخليص سمات تطور هذه الجرائد، فيمكن اختصارها في جانبين أساسيين، وهما:

• خاضت بعض القنوات التلفزيونية، الخاصة، غمار الاستقلالية النسبية في مجال مصدر الأخبار، وبدأت، منذ أكثر من عقد من الزمن، تعتمد اعتمادا متزايدا على مصادرها الإخبارية. وقد نجحت في بعض الأحيان في أن تتحول إلى مصدر إخباري لوسائل إعلام أجنبية، بما فيها القنوات التلفزيونية والمواقع الإخبارية في شبكة الانترنت. وبهذا فإنها استرجعت جزءا كبيرا من الجمهور العربي الذي تسرب ليضخم قائمة مشاهدي القنوات التلفزيونية الغربية. هذا ما تكشف عنه عمليات سبر الآراء التي تنشر بين الحين والآخر.

• أمام " انحصار السر"، وتزايد المنافسة بين القنوات التلفزيونية الأجنبية والعربية اضطرت العديد من الجرائد التلفزيونية العربية إلى نشر الأخبار التي

كانت تندرج في خانة الكتمان. وهذا يعني أن سجل المواضيع التي تلج " الفضاء العام" تتزايد باستمرار.

هذه التطورات التي أصبحت من المتغيرات في المشهد التلفزيوني العربي لا يمكن أن تخفي الكثير من الثوابت، والتي يمكن أن نعبر عنها كما يلي:

1- يعتقد البعض أن النظرة إلى الجريدة المتلفزة في القنوات التلفزيونية العربية هي نتيجة منطقة لهيمنة السياسية. فظرة السلطات العمومية في المنطقة العربية للتلفزيون لم تتحرر من وطأة السياسي، إذ أنها تعتبر التلفزيون أداة سياسية بامتياز. فتوتر العلاقات بين هذه الدولة أو تلك تنعكس بشكل يكاد أن يكون آليا على القنوات التلفزيونية، فتتبارى بشكل واضح أو متستر لتصفية الحسابات بينها عبر القنوات التلفزيونية. كما أن الجرائد المتلفزة مازالت رهينة الحدث السياسي. فالجريدة المتلفزة تكاد تختصر في الأخبار السياسية ونُغيب المجتمع في الحدث السياسي الذي يكون وراءه الأشخاص أو المؤسسات السياسية الرسمية. فلا يظهر من الحياة الاجتماعية والثقافية بزخمها وعنفوانها إلا جانبها البرتوكولي الذي يوحى بجمود الأخبار التلفزيونية، رغم تجدها على الصعيد المرئي و التركيبي المذكورين أعلاه. فحتى الأحداث الرياضية التي كانت تتمتع بقدر من الاستقلالية عن الفعل السياسي في الجرائد المتلفزة، أصبحت تستغل سياسيا لتعطي شرعية للسياسة التي طلقها الجمهور أو أجبر على تطبيقها.

2- رغم الانفجار الإعلامي الذي يقذف بالأخبار من كل فج عميق: مواقع الانترنت، الوتيب Youtube، والمدونات Blogs، وتويتر Twiter، والقنوات التلفزيونية المختلفة، والمحطات الإذاعية، التي تلاحق الجمهور حيثما حل وارتحل إلا أن السلطات العمومية في المنطقة العربية مازالت تخشى الأخبار. والدليل على ذلك أن القنوات التلفزيونية الجامعة الخاصة، التي رخص لها بالبث حرمت من حق بث الأخبار المتلفزة. هل مازال الاعتقاد قائما بأن المشهد الإعلامي العالمي و العربي ظل على ما كان عليه في السبعينيات من القرن الماضي؛ أي أنه رمز للسيادة الوطنية؟

قد يندهش المشاهد من غياب الخبر الوطني في جل الجرائد المتلفزة في القنوات التلفزيونية العربية، أو لنقل ضيق مفهومه، حيث أختزل في النشاط العادي إن لم يكن الروتيني الذي تقوم به المؤسسات الرسمية والأشخاص الرسميون. لعل البعض لاحظ كيف أن العديد من الجرائد المتلفزة العربية تُختصر في الأخبار الدولية خلال فترات الإجازة الصيفية التي يقل فيها النشاط الرسمي!

3- لازال البحث عن أنموذج الجريدة التلفزيونية العربية الناجحة يشكل هاجسا يورق أصحاب القرار الإعلامي في بعض الدول العربية. هذا ما نلاحظه في محاولة استنساخ بعض الجرائد المتلفزة العربية والأجنبية أو اللجوء إلى مكاتب الدراسات الأجنبية من أجل شراء تصاميم جاهزة للجرائد المتلفزة.

لقد برهنت التجارب على أن وجود أنموذج واحد ووحيد للجرائد المتلفزة هو ضرب من السراب. **فلكل جريدة تلفزيونية شخصيتها المتميزة النابعة من موقع القناة التلفزيونية التي تبثها وخصوصيتها، وطبيعتها جمهورها.** ففي الدولة الواحدة، مثل فرنسا، نعثر على عدة نماذج، نذكر منها الجريدة المتلفزة التي تبثها القناة الثانية من التلفزيون الفرنسي على الساعة الثامنة ليلا والتي تتميز بتركيزها على موضوع أساسي غير آني. وجريدة القناة الثالثة بالتلفزيون ذاته التي تهتم بالقضايا المحلية المرتبطة بانشغالات المدن الداخلية وسكانها. أما الجريدة المتلفزة في القناة التلفزيونية السادسة الفرنسية، الموجهة للشباب، فإنها تبنت أسلوبا شبابيا: أخبار مختصرة، لغة مباشرة وعملية، إيقاع سريع. و يقدمها مذيع واقفا، ومرتديا لباسا شبابيا: قميص خفيف، وسروال جينز. وتستفيد من التفاعلية التي تتيحها التكنولوجيا الحديثة.

حقيقة لا يمكن أن ننفي أن بعض الجرائد المتلفزة العربية سعت لفرض تمايزها. فالجريدة التي تبثها قناة الشرق الأوسط: MBC، على سبيل المثال، تُختم، في الغالب، بخبر متميز ذي طابع خفيف أو محتوى إنساني. وأن قناة الجزيرة القطرية أدرجت في جريدتها المصورة عودة إلى حدث بارز وقع قبل سنة أو سنوات، لمتابعة تطوراته أو اكتشاف مستجداته في محاولة منها لاستخراجه من غياهب النسيان.

لكن البحث عن خصوصية الجريدة المتلفزة في القنوات التلفزيونية العربية يكتفي في بعض الأحيان بالجانب التقني. فالركح التلفزيوني - البلاطو- الدائري أو البيضاوي ذي الألوان الرزينة (بيضاء أو زرقاء)، و الأعمدة الممتدة الحاملة للأنوار الكاشفة التي لا تكتفي بإظهار المذيع/ مقدم الأخبار، بل تركز على الديكور التعبيري: طاولة منتصبة وسط البلاطو تحمل جهاز كمبيوتر، وكاميرات مسلطة على مقدم الأخبار والشاشة العملاقة الموجودة ورائه التي تنبلج منها بشكل إيقاعي صور المراسل أو الضيف أو الأحداث أو الرسوم التوضيحية والخرائط، وتتدغم مع المذيع لتصبح جزءا من الركح التلفزيوني. إن هذا الديكور الذي يأخذ بيد المشاهد في رحلة إلى المستقبل التكنولوجي، يرهقه المحتوى المتداول الذي مازال يجر ورائه الماضي. كيف؟

نظرا لهيمنة الرؤية السياسية على الجريدة المتلفزة لم يستطع مذيع الأخبار أو مقدمها أن يتحرر من صورة الخطيب، الذي يلهب الجمهور حماسا. يتكلم بنبرة حادة وجازمة، وصوت مرتفع، وكأنه يقرأ بيانا رسميا. ولم ينتقل إلى متحدث يكلم المشاهدين بحميمية و لا يلقي عليهم خطابات عصماء.

لم تستغن الجريدة المصورة الكندية، على سبيل المثال، على قراء الإعلانات الذين كانوا يقدمونها منذ انطلاقتها في مطلع الخمسينيات فحسب، بل استغنت عن تقاليدهم في تقديم الأخبار، التي رسخت التعامل مع الأخبار كأنها نص إعلاني (إشهاري)⁷. لقد استبدلتهم في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي بالصحافيين المحترفين والمراسلين الصحافيين الذين يتحدثون للجمهور عما جرى، ولا ينادون لبيع سلعة.

إن الديكور المذكور يوحي بأن الجريدة المتلفزة تروم إظهار ما يجري، وإمتاع النظر وحتى تسليته. بينما الواقع يبيّن بأنها مازالت تسعى إلى شرح ما يجري وتحليله قصد إفهام الجمهور. إذا كان هذا القصد نبیلا ومشروعا وضروريا بالنسبة لبعض الأحداث الغامضة و المعقدة، فإن الاعتماد عليه كقاعدة أساسية يستغفل الجمهور ولا يتعامل معه كشخص راشد، من جهة، ومن جهة أخرى يشجع كسل الصحافيين عن البحث والتقصي ويؤسس لمعيارية تفقر الأخبار التلفزيونية. يحضرنى في هذا المقام ما قامت به إحدى القنوات التلفزيونية الإخبارية الرائدة. لقد ذيلت جريدتها المتلفزة بخبر من دولة آسيوية، أشار فيه مراسلها إلى أن سكان عاصمتها أصبحوا يتجولون في الأسواق مرتدين منامة أو بيجاما، فدفع الكثيرون إلى التقرز من هذا السلوك غير اللائق. وذكر المراسل أن ارتداء لباس النوم في تقاليد هذا البلد كان يرمز في القديم إلى الثراء، ويندرج ضمن نمط معيشة العائلات الميسورة. وبمجرد الانتهاء من بث هذا الخبر تم الاتصال عبر الأقمار الصناعية بأحد الخبراء في دولة عربية، وليس آسيوية ليشرح لنا هذه الظاهرة! وكأنها بلغت من التعقد والغموض درجة يصعب على المشاهد أن يفهمها، وان رهانها على القضايا الوطنية والقومية يندر بخطر غير مسبوق! بالطبع، لف الخبير ودار دون أن يقول شيئا سوى التذكير بما هو معروف، وينطبق على العديد من المواضيع والأحداث بصرف النظر عن موقعها الجغرافي، إذ أكد أن الناس ميالون للتمسك بتقاليدهم!

4- رغم أن القنوات التلفزيونية الخاصة تتمتع بهامش من الحرية أكبر من القنوات التلفزيونية التابعة للدولة، إلا أن بعضها يجنح نحو الترفيه والتسلية. وبعضها الآخر إتمد على أشكال تعبيرية مازالت أسيرة الماضي، إن لم نقل

رهينة التلفزيون التجديدي. فمادتها الإخبارية يتقاسمها الخبر والتقارير الصحفيين المشحونين بالتعليق الخاص، والحوار. ولا مكان للأنواع الصحفية الاستقصائية، مثل التحقيق الصحفي، والأنواع التعبيرية، مثل: البورتري Portrait والريبورتاج. فرغم جدّة مضمون الجريدة المصورة إلا أن شكلها، أي قالب التعبير الذي يظهر من خلاله هذا المضمون، يوحي بالجمود الناجم عن اجتراره بدون إبداع ألا في حالات استثنائية قليلة. إن تحديث هندام الجريدة التلفزيونية سنويا يعبر عن انشغال بمظهرها أو شكلها و لم يتحول إلى اهتمام بالشكل التعبيري للمادة التلفزيونية التي تقترحها على المشاهدين.

لعل هذه الحقيقة تكشف لنا عن الرابط الخفي بين استمرار وجود الصحفي/ الخطيب والشكل الصحفي الخطابي للمادة التلفزيونية. إن الخطاب يضيف طابعا رسميا على الأخبار التلفزيونية، ويركز على الجانب العام في الحدث، أي يأخذ من الأحداث الشذرات التي تخدم رؤيته لتحقيق قصديته. بينما السرد، الغائب أو شبه الغائب، في الجرائد المتلفة العربية فإنه يتمتع برشاقة وحيوية، ويهتم أكثر بالتفاصيل. التفاصيل التي تزعج، تذكر، تنبه، تخبر، تبشر. إنها تتدفق حياة في ارتباطها بالواقع. إذا السرد أقرب إلى الملموس، والخطاب أقرب إلى التجريد. وإذا كان التجريد قد خدم الثقافة الغربية، فإنه أضر بالثقافة العربية، في نظر المؤرخ المغربي عبد الله العلوي.

5- يبدو أن الجرائد المتلفة التابعة لتلفزيونات الدولة في المنطقة العربية لم تتأثر بالتغيرات التي حدثت وتحديث في المشهد التلفزيوني العربي، وبواقع الاتصال في العالم، أو لم تعبأ بها، وذلك لأن استمرارها في الوجود غير مرتبط برأي الجمهور فيها. والإعلانات التي تحصل عليها لا صلة لها بعدد مشاهديها. لكن مع مرور الوقت ستتحوّل هذه الجرائد إلى عبء يقع على كاهل الحكومات المتعاقبة عوضا أن يكون عوناً لها في اتصالها بالمحيط الخارجي وفي مسيرتها التنموية. ويمكن أن تطعن في مصداقيتها. لتوضيح هذه الفكرة يمكن القول أن الدول العربية التي نظمت انتخابات تشريعية تؤكد بشدّة على أن مجالسها النيابية تضم نواباً من المعارضة، مما يعبر عن التعددية السياسية السائدة في المجتمع. لكن الجرائد المتلفة في القنوات التلفزيونية التابعة للدولة تنسى أصوات هؤلاء النواب وأراءهم عندما تقوم بتغطية أشغال البرلمان، ولا تتذكرهم إلا في الانتخابات القادمة.

إذا كان للتطور التقني دوراً في تحرير قدرات الفنانين ورفع مكانتهم المهنية ومنحهم المزيد من المبادرة في القنوات التلفزيونية الغربية، فإن وضعهم في القنوات التلفزيونية العربية ظل على ما هو عليه؛ أي مجرد منفذين. هل ينطبق هذا الأمر

على الصحفيين؟ إن طرح هذا السؤال يجد مبرره في تبعية الجريدة المتلفزة في تلفزيون الدولة للمصادر الرسمية: الهيئات الرسمية، والناطقون الرسميون أو وسائل الإعلام الرسمية: وكالات الأنباء، الإذاعات الرسمية... فنسبة الأخبار الآنية والأصيلة التي يستقيها الصحفيون في القنوات التلفزيونية التابعة للدول تظل قليلة إن لم تكن معدومة.

المطلوب من الجريدة المتلفزة في القنوات التلفزيونية العربية الجامعة الرسمية أن تقدم الزاد الرمزي، أي المادة الإعلامية التي تهتم بجميع فئات المجتمع وتعتبر عن انشغالاتهم، وتصل طموحاتهم وتوحد مثلهم؛ أي القاسم المشترك لتماسكهم، والأرضية التي تزودهم بتمثّل واقعهم ومستقبلهم. لكن ماذا يحدث لو تعطلت هذه الجريدة، وانكفأت على مدح الذات فقط، أو انصرفت عن الانشغالات المرتبطة ببناء مجتمع؟ ففي هذه الحالة يزداد عدد الذين لا يجدون ذاتهم فيها، فيبحثون عن البديل الذين يشكلون ذاتهم من خلاله.

د. نصر الدين لعياضي

كلية الاتصال، جامعة الشارقة

المراجع:

¹ - D'Aiguillon Benoit: Journal télévisé et nouvelles technologie. Chronique d'une mort annoncée? Les Cahiers du journalisme n 5; décembre 1998; p 111

² - Charron Jean, De bonville Jean : de la théorie du terrain , modèle explicatif de l'évolution du journal télévisé au Québec- Les études de communication publique -n 18- université de Laval -2005

³ - D'Aiguillon Benoit, Ibid p.114

⁴ - Ibid

⁵ - Jost François :Introduction à l'analyse de la télévision, Ellipses Edition, Paris, 1999, p. 102;

⁶ - Mehr Licht: Comment la structure rituelle du Journal télévisé formate nos esprits, consulté le 14 novembre 2009 du site: http://lesogres.info/article.php3?id_article=3457

⁷ - Charron Jean, De bonville Jean; Ibid